ومع ذلك..
حلّق العصفور في السّماء

قصة بقلم إدريس الصغير

لطقطقات الآلة الكاتبة رجع في قلبي . وشمس الوطن الحبيب تغازلني من النافذة المشرعة المصراعين . خمنت جيدا . هذا الرجع ليس خوفا ، فأنا منذ وعيت لم أعرف الخوف يوما . لانني لا أملك شيئا بتاتا أخاف اضاعته أو فقده . كانت الآلة الكاتبة تسير بالورقة الى اقصى اليسار ، لكن الموظف يعيدها بدفعة من يده الى اقصى اليمين . ثم لا تلبث الورقة أن تعاود مسيرتها في تحدّ واصرار . وجدت لذة عظمى في التفكير في هذه الآلة الكاتبة . انها ترسم مصيري . لكنها ما تفتأ تتحدى الموظف في ثقة . حوّلت عينيّ نحو الموظف ذي الشارب الكثّ والطلعة الجافة الصارمة . كان في معركة حقيقية، لكن الآلة لم تكن لتجهد نفسها . عجيب هذا التزاوج عند آلة حديدية . السكون والحركة . الاستسلام والتحدي . المطاوعة والاصرار . قلت في نفسي . لا يملك هذا الموظف في الاخير الا أن يسلم بأمر لا بد هو واقع . فعند آخر كلمة يخطها لا بد أن تكون الآلة قد اخذت الورقة الى اقصى اليسار .

من النافذة كانت شمس الوطن الحبيب تغازلني . شمس الضحى . هذه الشمس التي تسفع الآن حتما جباه الكثيرين من أشقياء العالم في الحقول والضيعات والاوراش . كان الكرسي الذي اقتعده رديء الصنع مما سبب لي آلاما حادة في ظهري ومؤخرتي .

انا والموظف .

يفصلنا عن بعضنا مكتب خشبي قديم مورست على سطحه وقوائمه ترميمات كثيرة . فكرت في انهم يتعمدون الاحتفاظ بهذا الجو زيادة في الرهبة . كان جو الغرفة موحشا . وعلى حافة النافذة حطّ عصفور صغير ملوّن الريش . غرد بصوته الرخيم ثم طار محلقا في الفضاء الفسيح . انا ادخن والآلة ترسم مصيري . كنت بين الفينة والاخرى أدلك معصميّ تخفيفا لألم القيد الذي خلف فيهما شللا وخدرا . حاولت ان اتصور مقدار الناس الذين ولجوا قبلي هذا المكان . لا بد أن يكون العدد اكبر من تصوراتي .

وامتلأت الغرفة بالصياح واصوات الاحتجاج والتحدي .

ـ توزع المناشير ضد فرنسا يا كلب وانت مجرد عامل بسيط .

ـ تنادي بعودة الملك من المنفى ولست سوى فلاح خماس .

ـ نطالبين بالاستقلال ولست سوى عاطلة جاهلة .

ـ وانت لم تولد سوى أمس وتنادي اليوم بالعدالة الاجتماعية والمساواة .

ـ أما أنتم فلستم سوى جماعة تحاول الاخلال بالنظام والامن .

تضايقت كثيرا من هذه الجلسة المتعبة ، بينما كان هو يؤدي عمله في ميكانيكية روتينية .

كان يتمطى بين الفينة والاخرى في حنين ظاهر الى فراشه المحشو بالصوف . كما انه كان يدخن بتلذذ ، بينما لم أكن امتصّ من دفينتي سوى الغضب والتحدي والحقد .

هبّ عليّ من النافذة نسيم الوطن الحبيب . كان عليلا . ملأت منه رئتي ما شاء الله لي أن أملأ . توقف الموظف عن الكتابة . نظر اليّ شزرا يحاول استفزازي . لتسجل اذن هذه الجريمة في ملفتي . يمكنكم كذلك اضافة مسألة اللهج بالوطن في السر وفي العلن . سجلي ايتها الآلة الكاتبة . سجلي عني وعنهم وعنا بمداد الفخر .

النافذة مشرعة المصراعين . الشمس ونسيم الوطن .

ـ لماذا ؟ متى ؟ كيف ؟ اسكت . انطق . قف . انبطح . اجلس . اخلع .

خارج الغرفة كان الناس يتكدسون كالسردين في الحافلات . يعملون . يعرقون . يتعبون . ثم يعودون في المساء ليلتصق بعضهم بأجساد بعض في غرف ضيقة نتنة . كانوا يطعمون فتات الخبز ويشربون أقداح الشاي الاسود . يبيعون أجسادهم مقابل قطعة سكر .

حطّ العصفور الصغير الملون الريش مرة ثانية على حافة النافذة . ارتجت كثيرا لسماعي تغريده الرخيم ، لكن الموظف تضايق كثيرا فارتعش شاربه الكث وتقوس حاجباه ، ثم قام في عصبية متجها صوب النافذة التي لم يكد يبلغها حتى كان الطائر يحلّق بعيدا في سماء الوطن .

اشعل الموظف سيجارة ولعن كل العصافير والفراشات والحساسين ، ثم قال وعصبيته لم تفارقه بعد بأن الغربان والعقبان وطائر العنقاء لا بد أن تملأ السماء . ثم ضرب سطح المكتب بقبضة يده بقوة . لا بد . تكررت الضربات ولازمة « لا بد » مرات كثيرة بطريقة هستيرية رعناء . كان الزبد يتطاير من فم الموظف وقد جحظت عيناه .

لازمني هدوئي رغم الكرسي الذي أقتعده . كان عليّ أن أمعن في هذا الوضع جيدا . خارج الغرفة كان الناس يبيعون سواعدهم مقابل قطع سكر صغيرة مربعة بيضاء في الاسواق والساحات العمومية واديرة الرهبان.

« اقتربوا يا عباد الله واكشفوا عن سواعدكم . مقابل ساعد قوي يمكنكم أن تربحوا قطع سكر . سكر حقيقي . انتهزوا هذه الفرصة الذهبية يا عباد الله . نوصيكم عباد الله بالعمل ، فالعمل أثمن كنز . تشبثوا بالحمير في حسن العمل والصبر على تحمل المشاق ، واحذروا عباد الله الطمع في مباهج الدنيا الفانية وأموالها . نوصيكم بالقناعة والفقر . نوصيكم بالفقر . الفقر . الفقر . وقد سعد في الدنيا والآخرة من ولد فقيرا ومات فقيرا » .

أنا في الغرفة الرهيبة الموحشة . أنا والموظف . كانت الآلة الكاتبة ترسم مصيري ما تزال . ولما كانوا قد وضعوا بيني وبين عدوي حواجز كثيرة شائكة فقد قررت أن أجتازها واحدا واحدا حتى أجد نفسي مع العدو وجها لوجه .

الدار البيضاء

دار الآداب تقدم

الثلج يحترق

رواية بقلم

ريجيس دوبريه

في هذه الرواية ، يقفز مؤلف « ثورة في الثورة » الى الصف الاول من الروائيين الفرنسيين المعاصرين ، فينال أخيرا « جائزة فمينا » المشهورة تقديرا لموهبته وفنه .

و « الثلج يحترق » قصة رجل وامرأة ، بوريس وايميلا ، يبحث أحدهما عن الآخر ، فيلتقي به ثم يضيعه ، ثم يلتقي به ثانية ، ويحنّ اليه ويفقده ، عبر أوروبا وأميركا . في النضال والعذاب والموت والقتل . من أجل حب البشر .

اختارت ايميلا ، ابنة جبال النمسا ، أن تقاتل من أجل العدالة . وتلتقي في هافانا بشاب فرنسي ، بوريس ، نجا من ثورة أخرى ، فتسحره ، ولكنها تحب زعيما ثوريا ، هو كارلوس ، وتذهب فتعيش معه في « لاباز » ، في الخفاء والفرح ، الى اليوم الذي تغتاله الشرطة البوليفية . وتفقد ايميلا كل شيء : الرجل الذي تحبه ، والطفل الذي تنتظره ، والمعركة التي تخوضها ، ولكنها لا تترك الدرب الذي سلكته ، فمن كوبا الى التشيلي ، ومن بوليفيا الى انكلترة ، ومن باريس الى همبورغ ، تضطلع بقدرها حتى النهاية . قدر المرأة المناضلة .

ان « التاريخ » يسكن قصة هؤلاء الابطال . فهو لحمهم ، وعذابهم ، وألمهم . ان سعادة بوريس وايميلا مستحيلة ، ولكن أناسا آخرين سيكونون يوما ، بفضلهما ، أقل شقاء .

ان هذه الرواية أغنية حب في مأساة عصرنا . توكيد ارادة للحياة وللنضال .

تصدر في الشهر القادم